قرن الشيطان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم بارك لنا في شامِنا، وفي يَمَنِنا». قالوا: «وفي نَجْدِنا؟». قال: «اللهم بارك لنا في شامنا، وفي يمننا». قالوا: «وفي نجدنا؟». قال: «هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان».

(حديث نبوي، في صحيح البخاري)

«نبيّ نجد»

كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب (1703- 1791) يرى نفسه حاملاً لرسالة عظيمة من الله، قوامها محاربة الشرك والبدع. فقد وجد الرجل أنّ العباد أشركوا بالله، ورجعوا إلى عبادة الأوثان والأحجار والقبور، وابتدعوا أرباباً يتضرّعون لها. وأخذ ابن عبد الوهاب يكتب رسائل، ويرسلها إلى ملوك الأمصار وأمرائهم وشيوخهم، على طريقة ما كان يصنعه النبي محمد، ويدعوهم إلى أن يسلموا ويتركوا ما هم فيه من الضلال، وأن يؤمنوا بالله الواحد، ويتبعوا سنّة نبيه، وأن يتخذوه إماماً لهم، ووليّاً وهادياً.

واستبدّ به هذا الهوس حتى اعتقد أنه المبعوث لهداية البشر، وتخليصهم مما هم عليه من الكفر. بل إنّ الرجل في تقمصه لشخصية «الرسول» صار يصنع أموراً لافتة. ففي السنوات الأولى لدعوته، جعل محمد بن عبد الوهاب من قرية العُيينة (مسقط رأسه) مركزاً لنشر تعاليمه. لكنّ «الإمام» لم يلق فيها آذاناً كثيرة صاغية، فاضطر، في سنة 1744، أن يهاجر بدينه إلى الدرعية التي يتزعّمها آنذاك ابن سعود. وأبرم الشيخ، في دار الهجرة، ميثاقاً مع محمد بن سعود، وبموجبه اقتسما أطراف الولاية: للشيخ ونسله السلطة الروحية، وللأمير ونسله السلطة الزمنية. ووجد الشيخ في أهل الدرعية «أنصاراً». ثم التحق به في «المدينة الجديدة» أتباعه القدامى، فسمّاهم «المهاجرين». وأطلق ابن عبد الوهاب على جماعته ألقاباً، وأسبغ عليهم صفات، فهم «المسلمون»، وهم «أهل التوحيد»، وهم «الفرقة الناجية في أهل السنّة والجماعة». ثم قسّم الرجل كل من لم يلتحقوا بدعوته، وأنزلهم ثلاثة منازل. فالصنف الأول هم «الكفار»، وأولئك يندرج ضمنهم كل الذين لم يعتقدوا بدين الإسلام. والصنف الثاني هم «المشركون»، وأولئك عامة المسلمين «الذين يشهدون أنه لا إله إلا الله، لكنهم لا يعملون بها لجهالةٍ، أو لاتباعهم الضلالة»، ويدخل في هذا الباب (الشرك بالله) كلّ من اتّبع مذهب الأشاعرة، أو التصوف، أو التشيّع، أو الاعتزال... وأمّا الصنف الأخير فهم «المنافقون»، وأولئك قوم عرفوا «الدين الحق»، لكنهم أنكروه كِبراً وعناداً (1). وبعد أن صنف الشيخ الناس، وقسّمهم، وأنزلهم منازلهم، أفرغ نفسه لمعالجة قضية رب الناس، فجعل يبحث في صفات الله وأسمائه وكنهه، ويفسّر ما ورد في القرآن حول يده ويمينه وقبضته. وهداه تفكيره (وقراءته في كتب ابن تيمية) إلى أن للّه ذاتاً مادية، ولكنّ ذاته لا تشبه ذوات خلقه. وأن ما ورد في الآيات القرآنية عن يدي الله المبسوطتين، إنما يقصد بها الحقيقة لا المجاز. وختم ابن عبد الوهاب تأويله في تجسيم الله بقوله في رسالة بعثها لأهل القصيم «فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه، ولا أحرّف الكلم عن مواضعه». ولقد يكون رأي الشيخ في صفات الله مسألة نظرية تندرج ضمن ما يسميه المسلمون علم الكلام، لكنّ المشكلة أنّ الرجل اعتبر تصوراته اللاهوتية هذه جزءاً من العقيدة التي لا يجوز الاختلاف حولها، وأن من ينكر تلك المعتقدات التي تجعل الله جسماً وشكلاً، يكون كافراً، وخارجاً عن عقيدة الإسلام، وتجب محاربته وقتله!

بعد أن بنى الشيخ محمد بن عبد الوهاب تصوره الثيولوجي لصفات الله، وشروط الإيمان، وأسس العقيدة، انبرى إلى إحياء سنّة «الجهاد». فمضى، ومن ورائه أتباعه، يثخنون في الأرض، ليقيموا أسس الدولة الإسلامية، كما تصوّروها. وكانت الغاية من إنشاء هذه «الدولة» هي «مقاتلة الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله». فالناس، كما قال محمد بن عبد الوهاب، «ليسوا على شيء، منذ ستمئة عام». ولقد آن الأوان لإجبارهم على أن يؤمنوا بالإسلام الصحيح ويدخلوا فيه أفواجاً، ولو كان ذلك بحد السيف. وخلال عشرين عاماً، شن جنود «الإمام» أكثر من ثلاثمئة «غزوة» ضدّ من سمّوهم «مشركي الجزيرة العربية». أي إنّ الرجل و«صحابته» غزوا الناس بمعدل خمس عشرة غزوة، في كل عام. ولم تكن معظم تلك «الغزوات» إلاّ غارات، تشنّ على طريقة بدو نجد، ويراد بها النهب والسلب. لكنها تلبّست، عند الوهابيين، بمسحة

دينية، وأدلة شرعية تبرّر لهم قتل العباد، والسطو على أرزاقهم، وترويع عيالهم، وسبي نسائهم. وفصّل مؤرّخ الوهابيين عثمان بن بشر، في الجزء الأول من كتابه «عنوان المجد في تاريخ نجد»، أحداث تلك السنوات، وما جرى فيها من الغزوات. ويمكن للمرء أن يستخلص، من قراءة هذا الكتاب، مجموعة من النتائج، فالضحايا، في حروب الوهابي، يقدّرون بعشرات الألوف. والمهجّرون من ديارهم يناهز عددهم نصف سكان نجد (وسط الجزيرة العربية)، واليمامة (جنوب نجد)، والبحرين (ساحل الخليج العربي). وفي زمن لاحق بعد موت الشيخ، امتدت سياسة التهجير والتقتيل إلى أهالي الحجاز، وتهامة (ساحل البحر الأحمر) واليمن، والعراق، وعمان، وأطراف الشام. وأمّا التبرير الوهابي الجاهز لكل تلك الجرائم، فهو حديث منسوب إلى النبي، يقول فيه «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».

«أجداد الدواعش»

اختزل الوهابيون دينهم، في تسوية القبور بالأرض، وهدم مقامات الصالحين وقباب الأولياء التي بناها الناس تكريماً لقدرهم، وتخليداً لذكرهم. وما زال تهديم الآثار وإبادة التراث المعماري والحضاري سنّة دارجة عند الوهابيين، وسمْتاً، وأمارةً على مرورهم في الأزمان والبلدان. ولم يسلم ضريح في أرض استولوا عليها من تخريبهم، بل إنهم كانوا يدقّون الطبول، ويهزجون بالأناشيد، وهم يدمرون آثار المسلمين في مكة والمدينة. غير أنهم لم يقدروا على هدم حجرة النبي، وتسوية قبره، وتحطيم القبة المقامة فوق مرقده، تنفيذاً لوصية شيخهم ابن عبد الوهاب (2). ولقد حاولوا حين احتلوا المدينة المنوّرة، أوّل مرّة في شهر آذار 1803، أن يخرّبوا القبة الخضراء، لكنهم رأوا من هياج المسلمين على تطاولهم وجرأتهم على الحضرة النبوية، ما جعلهم ينكصون على أعقابهم، ويُحجمون (2). على أنّ محاذرتهمّ من عواقب هدم مقام النبي محمد، لم يردعهم عن السطو على ما في حجرته، ونهب النفائس التي أبقاها المسلمون قروناً في جواره. ومن بين ما سرقه الوهابيون تاج كسرى أنو شروان، الذي غنمه المسلمون لمّا فتحوا المدائن، وسيف هارون الرشيد، وعقد كان لزبيدة زوجته، وتحف فريدة أرسلها سلاطين الهند لتزيّن مقام الحضرة النبوية. ومن سوء الحظ أنّ تلك التحف التاريخية النفيسة اندثرت، بعد أن وضع الوهابي يده عليها، فلم يعرف لها، إلى اليوم، أثر.

بيد أنّ ما نال قبر النبي محمد (ص) من التدنيس على أيدي الوهابيين، لا يقارن بما أصاب مرقد سبطه الحسين بن علي، في كربلاء. فقد جهّز سعود بن عبد العزيز (جدّ آل سعود الكبير) جيشاً من ستمئة هجّان، وأربعمئة فارس، ثمّ هجم بهم على المدينة الوادعة التي ارتحل عنها معظم أهلها، في يوم 18 ذي الحجة 1216هـ (22 نيسان 1802م). وكان ذلك اليوم هو ذكرى عيد الغدير الذي يقوم فيه شيعة علي بن أبي طالب بزيارة مرقده في النجف الأشرف، والتسليم عليه. واهتبل الوهابي تلك الفرصة ليغزو كربلاء، في غياب معظم أهلها، ويقتّل من بقي منهم في المدينة المقدّسة. وربط ابن سعود خيله في الصحن الحسيني، وأمر أتباعه بدق القهوة في أروقة المقام. وكان ذلك شاهداً مكرّراً للضغينة التي

يتوارثها أولئك القوم في صدورهم، وللعداوة التي ناصبت كل من يمتّ بصلة إلى النبي وآله. ثم لم يلبث الوهابيون حتى شرعوا يخربون كل ما تصل إليه أيديهم في مشهد الإمام الحسين، فاقتلعوا السياج البديع الذي يحف بالضريح، ودمّروا المرايا الجسيمة من حوله، ونهبوا النفائس والتحف والسجاد، وكل ما يزيّن المرقد الشريف، وهشموا الثريات الكبيرة، والأبواب المعشقة، وكسروا القضبان المعدنية في الشبابيك، وتطاولوا إلى زخارف الجدران يحطمونها، واقتلعوا الذهب المزين للسقوف، وأرادوا أن يخلعوا صفائح قبة المشهد الحسيني، ولكنهم لم يستطيعوا فعل ذلك لاستحكامها ومتانتها، وارتدّوا على القبّة يخربونها. ثم مضوا إلى الضريح نفسه لينقبوه ويحاولوا نبشه، واقتلعوا شباك القبر من مكانه، وحملوه في جملة ما سلبوا، وخلعوا باب خزانة المشهد حيث تتجمع التحف الثمينة المهداة إلى الروضة، منذ مئات السنين، فسرقوا كل ما فيها من ذخائر جليلة.

■ ■ ■

على أنّ أولئك السعوديين الأوائل الذين أفسدوا في الأرض، سرعان ما سلّط الله عليهم من قهرهم وأذلّهم. وفي مثل هذه الأيام قبل قرنين من الزمن، دُمّرت عاصمتهم الدرعية، وسوّي جميع ما كان فيها بالأرض. وكان ذلك على أيدي الأتراك العثمانيين (4) الذين قادهم إبراهيم باشا. وقُبِض على زعيم الوهابيين عبد الله بن سعود، فاقتيد إلى إسطنبول حيث نفّذ فيه حكم الإعدام بالخازوق. وأمّا الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقد ذكر ابن بشر قصة مقتله، في الصفحة 424، من الجزء الأول من كتابه «عنوان المجد في تاريخ نجد»، فقال: «أُمِر الشيخ على (سماع) آلات اللهو من الرباب فجروها عنده إرغاماً له بها. ثم خرجوا به إلى المقبرة، ومعه عدد كثير من العساكر، فأمرهم الباشا أن يثوّروا فيه البنادق، فثوّروها فيه، وجمع لحمه بعد ذلك قطعاً».

الهوامش:

(1) تزخر كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب ورسائله بخطاب التكفير. وبالرغم من أنه يحاول في بعض خطبه أن ينفي عن نفسه صفة «المكفّراتي»، إلّا أنّ الرجل سرعان ما يرتكس في هذا المزلق حين يشرع في تعريف «أهل الكفر والشرك»، بين الطوائف الإسلامية، وتحديد من هي «الفرقة الناجية» بين أهل السنة والجماعة. ولا تكاد تخلو واحدة من رسائل الشيخ من الموضوع الأثير إلى قلبه، وهو التكفير. ولقد جمعت تلك الرسائل التي كتبها محمد بن عبد الوهاب، في موسوعة بعنوان «الدرر السنيّة في الأجوبة النجدية». ثم حاول الشيخ السعودي صالح الفوزان أن يختزلها، وينتخب من تلك «الدرر» ما يمكن جمعه في كتاب عنونه بـ«الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبد الوهاب».

(2) كان محمد بن عبد الوهاب صارماً في ما يتعلق بهدم التراث المعماري الإسلامي، واعتبار الحفاوة

بمقامات الأئمة وأضرحة الصالحين، وزيارتها شركاً ومروقاً من الدين. ويؤثر عن الرجل قوله: «لو أقدر على هدم قبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهدمتها». وأيضاً قوله: «لو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها، وجعلت لها ميزاباً من خشب. وما زال الوهابيون إلى اليوم يحلمون بهدم قبة الضريح النبوي، ونبش قبر الرسول، ونقله إلى خارج مسجده في المدينة. وقبل أعوام، نشر إبراهيم بن سليمان الجبهان كتاباً عنوانه «تبديد الظلام وتنبيه النيام» (دار المجمع العلمي بجدة، الطبعة الثالثة - 1979). وجاء في الصفحة 389 منه، العبارة التالية: «نحن لا ننكر أن بقاء البنية على قبر النبي صلى الله عليه وسلم مخالف لما أمر به الرسول». ويضيف الجبهان: «وإن إدخال قبره في المسجد (النبوي) أشد إثماً وأعظم مخالفة». ويمضي الجبهان فيقول: «إنّ سكوت المسلمين على بقاء هذه البنية (يقصد القبة، والغرفة النبوية) لا يصيّرها أمراً مشروعاً». والأنكى من كلام هذا الشيخ الوهابي، هو أنّ إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة السعودية، هي التي أشرفت على طباعة كتابه، بإذن تحت رقم 4411/5، وبتاريخ 11/7/1400هـ . ولا يعدّ هذا الأمر غريباً، للذين يعرفون ما يضمره الوهابيون في أنفسهم. ولقد سئل كبيرهم الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ذات مرّة، عن بقاء القبة النبوية فقال: «القبة عاد عسى الله يسهّل هدمها».

(3) ما زال عداء الوهابيين للشيعة عنيفاً. ويروي الرحّالة اللبناني أمين الريحاني، في الصفحتين 584 و585، من كتابه «ملوك العرب» أنه سأل عبد العزيز (ابن سعود) عمّا يقصد في كلامه عن وجوب مقاتلة المشركين. فقال له: «إنهم شيعة الإحساء والقطيف».

(4) بقي حقد السعوديين على ما صنعه الأتراك بالدرعية معشّشاً في صدورهم. ويذكر النقيب الإنكليزي شكسبير (الذي قُتِل في معركة جراب سنة 1915 بين قوات ابن سعود وآل الرشيد) أن عبد العزيز، قال له: «إن الكافر في نظري أفضل من التركي». (راجع الصفحة 23، من كتاب «بعثة إلى نجد 1917 ـ 1918» الذي كتبه سانت جون فيلبي، وهو صار بعد ذلك أكبر مستشاري ابن سعود. وقد ترجم الكتاب وعلّق عليه عبد الله الصالح العثيمين). والغريب في ذلك الكتاب الذي دوّن فيه فيلبي محاوراته مع ابن سعود أنّ الأخير كان يعتبر أهل مكة مشركين. وقد نقل فيلبي حواراً دار بينه وبين عبد العزيز، في صيف 1918، قال فيه ابن سعود: «إذا زوّجتني أنت الإنكليزي ابنتك، فسأتزوجها ولا أشترط إلا أن يكون أولادي مسلمين. ولكني لا أتزوج ابنة الشريف (حسين)، ولا بنات أهل مكة، ولا غيرهن من المشركات».